نظرية هتشيسون الأخلاقية (Hutcheson`s Theory of Ethics)

د. سعيد على عبيد – مدرس الفلسفة الحديثة والمعاصرة – كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادى

مقدمة:

ما دعاني إلى أن أعنون البحث "نظرية هتشيسون الأخلاقية F. Hutcheson (1694 – 1746) وليس "الحاسة الخلقية فى فلسفة هتشيسون"؟ بمعنى، أن أجعل العنوان عامًا، وشاملاً، وليس مقتصرًا على فكرة واحدة بعينها، هو ما يلي:

تدور الإجابة حول إشكالية العنوان، فى كون هتشيسون يتمتع بمناخ أخلاقي خصب، فقد أخذ عن أستاذه اللورد شافتسبرى Shaftesbury (1671 – 1713) فكرة الحاسة الخلقية لكى يقوم بتطويرها، وتنقيحها أخلاقيًا، وسيكولوجيًا، حتى بدت نظرية الحاسة الخلقية عند هتشيسون متشعبة الأركان ما بين الفلسفة وعلم النفس، حتى أنه يمكن القول عنها بأنها نظرية فى علم النفس الأخلاقى أو "نظرية فى السيكولوجية الأخلاقية"، كما يمكن أن نطلق عليها أيضًا نظرية الجمع بين الحاسة الخلقية والنفعية، وذلك إذا نظرنا إليها – من زاوية فلسفية – لمعالجتها لنظريتي السعادة والإحسان، ونظرية نتائج الأفعال، وبالتالى رأيت من الصواب أن يكون عنوان البحث "نظرية هتشيسون الأخلاقية"، حيث إن الطرح الذى قدمه هتشيسون يجعلنا نجانب الصواب إذا قلنا بأنه فيلسوف الحاسة الخلقية وحدها، إذ أن معالجته لمشكلات الشعور أو العاطفة داخل فلسفته، جعلته ينادى بتحقيق أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس، وعليها يكون هتشيسون من أوائل الفلاسفة المنظرين لمبدأ المنفعة العامة فى فلسفة الأخلاق. وهذه الإشكالية تمثل الأهمية القصوى فى أن يكون موضوع البحث حول "نظرية هتشيسون الأخلاقية".

أما دوافع اختيار البحث، فهى كثيرة، ولكن يمكن إجمالها فى عدة محاور مهمة، كالتالى:

أولاً: يكمن الدافع الأول حول اختيار الفيلسوف محل الدراسة – فرنسيس هتشيسون – الذي يُعد حقًا الفيلسوف المسكوت عنه فى حقل الدراسات العربية خاصة، والغربية بوجه عام، لأننا لا نجد سوى عدد قليل جدًا من الباحثين الغربيين الذين تناولوا فلسفته بالتحليل والدراسة، على الرغم من كون فلسفته متاحة للباحثيين الغربيين المشتغلين فى حقل الدراسات الأخلاقية،

كما تمثل فلسفته الباعث وراء تغيير الخريطة الأوربية والأمريكية معًا، إذ تنطوى أفكاره الأخلاقية على أطر سياسية ودينية، والتى يمكن من خلالها معالجة مشكلات الديمقراطية ومشكلة العدالة، وبالتالى فهى فلسفة مهمة، ولابد أن تظهر للنور فى المكتبات العربية والغربية.

ثانيًا: يمثل هتشيسون فى فلسفة الأخلاق الفيلسوف التنويري فى القرن الثامن عشر، إذ أن أفكاره الأخلاقية تسبق فلاسفة عصره سواءً "شافتسبري" و "هيوم" فى الحاسة الخلقية، أو "بنتام" و "مل" في النفعية الأخلاقية، فهو الفيلسوف الذى قام بتطوير أفكار أستاذه فى الحاسة الباطنية، وهو أول فيلسوف فى القرن الثامن عشر يصدح بالسعادة، وينادي بالنفعية.

ثالثًا: محاولة صياغة الأفكار الأخلاقية التى جاءت فى كتابات هتشيسون، وذلك لكونها مجهولة الملامح فى المكتبات الفلسفية، وهذا قد يكون راجعًا إلى أن فلسفته كُتبت باللغة الإنجليزية القديمة، والأصيلة، كما أن بعض كتاباته فى الأخلاق عبر عنها باللغة اللاتينية[*]، وبالتالى إن من يريد الإبحار فى فلسفة هتشيسون لابد أن يكون على دراية باللغتين اللاتينية والإنجليزية الكلاسيكية، وحتى بعد صياغة هتشيسون لنصوصه بالإنجليزية يذكر فى كل فقرة من كتبه أربع أو خمس كلمات على الأقل باللاتينية، لذا كانت هناك صعوبة بالغة فى صياغة النص.

رابعًا: ما قدمه هتشيسون فى الفلسفة بوجه عام، والنظرية الأخلاقية بوجه خاص، يجعلنا لا نستطيع أن نكون عنه قالبًا فلسفيًا خالصًا، أو منفردًا، فهو الفيلسوف الكنسي المؤمن بالله تعالى، وهو أيضًا الفيلسوف اللاديني فى حقل الدراسات الأخلاقية، وكذلك فيلسوف اللاعقلانية فى مقابل النظريات الأخلاقية المؤسسة على العقل مثل نظرية صموئيل كلارك Samuel Clarke (1675 – 1729).

ومن خلال هذه الدوافع، تكونت الإشكاليات المتعلقة بموضوع البحث، التى على غرارها كان عنوان البحث، وأهم هذه الإشكاليات:

---

[*] هناك جدول فى نهاية البحث، قام فيه الباحث برصد بعض الكلمات اللاتينية، وكذلك المصطلحات الأخلاقية الواردة فى كتابات هتشيسون، وترجماتها باللغتين الإنجليزية والعربية.

1. لماذا كانت فلسفة هتشيسون مجهولة الملامح فى المكتبة الفلسفية؟ وإلى أي حد تبدو فلسفته الأخلاقية مهمة فى بناء السلوك الإنساني؟
2. ما الكيفية التى صاغ بها هتشيسون نظريته فى الحاسة الخلقية؟ وما دور العقل والدين فى تشكيل هذه النظرية؟ بمعنى، هل كانت نظرية هتشيسون الأخلاقية مؤسسة على الدين، أم لا ؟
3. إلى أى حد يمكن القول أن العاطفة هى الملهم الرئيس فى تشكيل الحاسة الخلقية فى فلسفة هتشيسون؟ وما علاقة هذه العاطفة بالأحكام الأخلاقية بوجه عام؟
4. ما السعادة التى ينشدها هتشيسون ؟ وهل هناك علاقة بين الإحسان وتحقيق السعادة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل يمكن وصف هتشيسون بأنه أحد الفلاسفة النفعيين فى القرن الثامن عشر ، أم لا ؟
5. إلى أى حد رفض هتشيسون فكرة حُب الذات ؟ وهل يمكن تأسيس الأخلاق على المصلحة الذاتية أو حُب الذات؟

ولمعالجة هذه الإشكاليات آثرت استخدام منهجي التحليل، والمقارنة أولاً، ثم بعدها عولتُ على منهج النقد، حيث إنهما المناهج المناسبة فى هذا البحث، وعليها جاء البحث متضمنًا ثلاثة محاور، ثم تعقيب على البحث برؤية نقدية.

ثم تأتي فى نهاية البحث خاتمة متضمنة لأهم النتائج التى توصل إليها الباحث، ثم قائمة بالمصادر والمراجع التى تم الاعتماد عليها فى تحليل البحث وطرحه.

وعلى الله قصد السبيل

أولاً: أهمية فلسفة هتشيسون الأخلاقية.

قبيل الشروع فى مناقشة فلسفة هتشيسون الأخلاقية، يجب علينا أولاً أن نضعه فى سياقه ومكانته الاجتماعية، التاريخية، والدينية، حيث إن هذه الاعتبارات لها بطبيعة الحال تأثيرٌ مباشرٌ فى تفسير طبيعة عمله، والسياق الذى أسس فيه مسيرته المهنية، الذي تميز به دون غيره[1]. فإذا كان يمكن القول – أن أعمال فرنسيس هتشيسون - غير معروفة لمعظم الباحثين فى حقل الدراسات الفلسفية، إلا أنه لا يمكن القول أن أعماله، وأفكاره قد تم تجاهلها أو نسيانها. والدليل

(1) Carey, D. (2005). ***Locke, Shaftesbury and Hutcheson***: Cambridge University Press, New York, p.152.

على ذلك أن معظم الكُتّاب فى الفترة الأخيرة، والذين يتعاملون بدقة مع فلسفة هتشيسون يكتبون دائمًا عن شهرة هتشيسون مقترنًا بمعاصره ديفيد هيوم David Hume (1711 – 1776) فى الدراسات الفلسفية المتأخرة[2]. بمعنى، أن فلسفة هتشيسون الأخلاقية لم تظهر بوضوح إلا من خلال علاقته بفلسفة كل من: هيوم وشافتسبري، فلا توجد فى الجامعات الغربية دراسة أكاديمية مستقلة – على حد علمي – حول فلسفة هتشيسون الأخلاقية.

وإذا كان تاريخ الفلسفة الغربية يتضمن أسماء عديدة لفلاسفة كانت لهم الشهرة الواسعة فى زمانهم، كما كان لإسهاماتهم الفكرية قيمة فلسفية عالية، وقد أصبحت الآن محاطة بالكثير من الغموض – إن لم تكن قد نُسيت تمامًا– أمثال هؤلاء المعلم، والفيلسوف، والكاتب المتميز فرنسيس هتشيسون الذى كان مما لا شك فيه واحدًا من أكثر الفلاسفة نفوذًا، وتأثيرًا فى عصره[3]. حتى قيل عنه أنه "مؤسس التنوير الأسكتلندى" The Scottish Enlightenment فى الغرب الأوروبي، حيث يُعد أفضل من عُرف باسهاماته فى مضمار النظرية الأخلاقية، كما كانت له رؤى، وأفكار متميزة فى تطوير النظرية الجمالية، وذلك على الرغم من كون فلسفته تدين بالكثير إلى تجريبية جون لوك John Locke (1632 – 1704) فى الأفكار والمعرفة[4].

بالنظر إلى البانوراما الحياتية فى فلسفة هتشيسون الأخلاقية، يتضح أنه ولد فى مدينة "دروماليج" Drumalig أسفل مدينة "ألستر" Ulster عام 1694م، وكان والده وجده من وزراء الدين الكنسي presbbyteroin ministers، وقد إلتحق هتشيسون بجامعة جلاسجو Glasgowفى عام 1711م، حيث تعلم فيها الآداب، واللاهوت، حتى أنهى دراسته بها عام 1717م[5]. وبعد ذلك تم التصريح له فى وظيفة واعظ ومرشد للشباب فى الكنيسة المشيخية فى "دبلن" Dublin عام 1719م، ولم يمض وقت طويل حتى تلقى هتشيسون دعوة من الكنيسة المشيخية فى "دبلن" لتأسيس أكاديمية للشباب المعارض للدين، وقد ظل رئيسًا لها على مدار

(2) Jensen, H. (1971). ***Motivation and The Moral Sense in Francis Hutcheson`s Ethical Theory***: Martinus Nijhoff, the Hague, Netherlands, p.x.

(3) Ibid: p.1.

(4) Norton, D. F. (2000). **Hutcheson, Francis**, in, *Concise Routledge Encyclopedia of Philosophy*, Routledge London and New York, First Published, p.370.

(5) Sprague, E. (1996). **Hutcheson, Francis**, in. *The Encyclopedia of Philosophy*, Edited by, Paul Edwards, volume three, Macmillan Reference, USA, New York, p.99.

عشرة سنوات[6]. كما كان هتشيسون يعقد محاضراته الخاصة داخل أروقة الفصول، مثلما يفعل بعض الأساتذة الآخرين الذين يشغلهم الاهتمام بالدين، وكان يحضر له العديد من التجار والشباب فى بلدته، لكى يُثبت لهم (أماسي) أيام الأحد من كل أسبوع، الأدلة التى تؤكد وتبرهن على وجود المسيحية، وفى صباح أيام الأثنين كانت له خُطبة خاصة، وكذلك كتابات تتعلق بالدين، وتكون – هذه الكتابات – موجودة بين يدى الشباب دون أى مقابل مادى، مما ساعد على أن يكون لهتشيسون جمهور كبير من القراء والمهتمين بالدين. أضف إلى ذلك أنه قام بإلقاء محاضراته باللغة الإنجليزية الصرفة، وكانت هذه طريقة جديدة قام بها هتشيسون، لذلك كان أقرب إلى قلوب طلابه ومُحبيه[7]. وهذه الفترة كانت نقطة تحول حاسمة فى فكر هتشيسون الأخلاقى والدينى، حيث أصبح شديد الإعجاب بفلسفة اللورد شافتسبرى[8].

وفى عام 1730م عُين هتشيسون أستاذًا لكرسي الفلسفة الأخلاقية فى جامعة جلاسجو، وقد مكث فى هذه الوظيفة حتى وافته المنية، بعد أن تزوج من ابنة عمه "مارى ويلسون" Mary Wilson عام 1725م، وأنجب منها سبعة أطفال، وظل معها حتى أصيب بمرض الحمى، ومات يوم ميلاده الثانى والخمسين، أى فى الثامن من أغسطس لعام 1746م، ودُفن فى إحدى قبور كنيسة سانت مارى بدبلن[9].

إن من أكثر السمات إثارة للدهشة فى نظرية هتشيسون الأخلاقية، كونها ترتبط ببعض الاتجاهات الجديدة فى الفكر الفلسفي، فقد أثارت نظرية هتشيسون الأخلاقية انتباه الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم، مما جعل هيوم يشير فى مقدمة رسالته A Treatise of Human Nature إلى الفلاسفة العظام الذين سبقوه فى اتباع منهجية جديدة فى علم الإنسان، مثل: جون لوك، اللورد شافتسبرى، برنارد ماندیفیل Bernard Mandeville (1670 – 1733)، فرنسيس هتشيسون، وجوزيف بتلر Joseph Butler (1692 –1752)، حيث تمكن هؤلاء الفلاسفة العظام من تطبيق المناهج التجريبية فى مجال الفلسفة الأخلاقية. فعلى الرغم من التطورات الجديدة لدى فلاسفة القرن السابع عشر حيث التشكك فى مزاعم النزعة العقلانية فى مجال

(6) Loc – cit.

(7) Scott, W. R. (2011). **The Never be Forgotten Hutcheson**, *Econ Journal Watch*, volume 8, Number 1, January, p.99.

(8) Sprague, E. ***Hutcheson, Francis***, op.cit, p.99.

(9) Clinton, B. MC. (2004). ***The Humanism of Francis Hutcheson***, Humanism Ireland, No 148, September- October, p.13.

الميتافيزيقا ونظرية المعرفة، إلا أنهم اغفلوا صياغة المناهج التجريبية فى مضمار النظرية الأخلاقية، والفلسفة الاجتماعية، مثل لوك الذى كانت تجريبيته ترى أن الحقائق الأخلاقية بديهية، مثلما كانت عند أصحاب الاتجاه العقلي أمثال كلارك، وكودورث Ralph Cudworth (1617 – 1688)(10).

وإذا كانت فلسفة هتشيسون تدين بالكثير إلى تجريبية جون لوك فى الأفكار والمعرفة، إلا أن هتشيسون قدم انتقادات حادة لمذهبه فى إثنين من أفكاره المعيارية المهمة وهما: الجمال، والفضيلة، كما رفض هتشيسون ادعاءات لوك فى كون الأفكار مجرد منبهات للعقل، ولا تشير إلى أي أشياء موضوعية، كما ضاق هتشيسون لمعالجة لوك الضيقة لفكرة اللذة الإنسانية والألم، والتى مفادها أن اللذات والآلام تنشأ نتيجة الاقتران بالحواس العادية، ولكن الواقع يقرر – على حد تعبير هتشيسون – أن هناك أكثر من الحواس الخمس المعروفة، حيث يوجد حاستان إضافيتان يمنحوننا القدرة فى التمييز، والتقييم بين اللذات والآلام، وهما الحاسة الجمالية والحاسة الأخلاقية(11).

إن ما سبق طرحه ومناقشته، يؤكد حقيقة فلسفية مهمة مؤداها، أن هتشيسون قد تمتع بقيمة فلسفية فى فترة حياته فى اسكتلندا، حيث كان صاحب فكرة فلسفية واضحة فى مجال الدراسات الأخلاقية، والإرشاد الديني، ولكن مع بدايات القرن العشرين، وظهور الاتجاهات الفلسفية النظرية منها والتطبيقية، أصبحت فلسفة هتشيسون بمثابة – المسكوت عنه – فى الفكر الفلسفى المعاصر، ولكن على الرغم من قلة الدراسات الغربية والعربية عنه إلا أنه بالفعل كان صاحب فكرة تنويرية فى مجال الأخلاق وفلسفة القيم.

والدليل على ذلك أن هيوم بدوره قد تأثر بفكرة الحاسة الخلقية حتى حشره بعض مؤرخي الأخلاق فى زمرة دُعاة هذا المذهب، كما قيل عنه أنه – أى هيوم – صديق هتشيسون، وابنه الروحي فى الأخلاق، فإذا كان هتشيسون أبًا للفلسفة الأسكتلندية كان هيوم – إلى حد بعيد – أكبر أبناء هذا الأب(12).

---

(10) Jensen, H. ***Motivation and The Moral Sense in Francis Hutcheson`s Ethical Theory*****,** op.cit, p.1.

(11) Norton, D. F. ***Hutcheson*****,** ***Francis*****,** op.cit, p.370**.**

(12) توفيق الطويل: **فلسفة الأخلاق – نشأتها وتطورها**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1985م، ص 344.

وإذا كانت نظرية الحاسة الخلقية Moral Sense يدين فيها هتشيسون بالكثير إلى أفكار اللورد شافتسبرى، إلا أن هتشيسون بالفعل كان ضمن الفلاسفة الذين مهدوا الطريق نحو ظهور نظرية ديفيد هيوم الأخلاقية، حيث تكمن أهمية الموقف الذى تبناه هتشيسون، وتأثر به ديفيد هيوم فى دفاعه عن الرأى القائل بأن الفروق الأخلاقية Moral Distinctions مستمدة من الحاسة الخلقية[13]. وعلى ذلك عُد هتشيسون صاحب أكبر أثر إيجابى مباشر فى فلسفة ديفيد هيوم، مما لا يجعل مكانًا للشك فى القول، بأن هيوم أخذ عناصر الفلسفة الهتشوسونية فى فكره، ولكن نظرية هتشيسون الأخلاقية كانت تشبه إلى حد كبير معظم معاصريه، فى قولهم بأن الأخلاق تُبنى على التصور اللاهوتى للطبيعة البشرية، وهذا القول يتعارض بشدة مع ديفيد هيوم[14].

وهناك بعض الباحثين مثل "بيتر كيفي" Peter Kivy الذي يؤكد على حقيقة مهمة مؤداها "أن اسم فرنسيس هتشيسون يرتبط دائمًا فى مضمار فلسفة الأخلاق وعلم الجمال بمذهب الحواس الداخلية Internal Senses بعد أن كانت مفاهيم الحاسة الخلقية، والإحساس بالجمال مقترنة باسم اللورد شافتسبري فى بريطانيا، ولكن هتشيسون صاغ المذهب فى صورته الأصيلة، فأصبحت الأحكام الأخلاقية والجمالية قائمة على الإدراك االحسى أو الانفعالى مبتعدة فى ذلك عن كل تفكير عقلي"[15].

وبعد إعادة طبع أعمال ديفيد هيوم الفلسفية فى صورتها الجديدة، وطبعاتها الختامية، وكذلك تراجع الكثير من أعمال الفلاسفة الهيجليين البريطانيين، حينها ارتفع احترام وتقدير شتى المواهب الفلسفية تجاه عبقرية هيوم الفلسفية، سواءً بالقبول أو الرفض، ومن هنا بدأ البحث والتنقيب فى استعادة الخطاب الفلسفى الذى ساعد فى تشكيل عبقرية ديفيد هيوم الفلسفية، سواءً فى فكرة العدالة أو الحاسة الخلقية، وبعد البحث تبين أن هناك شخصية فلسفية عظيمة تكمن داخل فلسفة هيوم الأخلاقية، ألا وهى شخصية الفيلسوف الإسكتلندى فرنسيس هتشيسون، حيث

(13) Jensen, H. ***Motivation and The Moral Sense in Francis Hutcheson`s Ethical Theory***, op. cit, p.2.

(14) Gill, M. B. (1996). **A Fundamental Difference between Hutcheson and Hume**, *Hume Studies*, Volume xxii, Number 1 (April), p.23.

(15) Kivy, P. (2003). ***The Seventh Sense – Francis Hutcheson and Eighteenth-Century British Aesthetics***, Clarenndon Press, Oxford, Second Edition, p3.

وجد هيوم العديد من الأفكار الفلسفية داخل فلسفة هتشيسون مثل الحاسة الخلقية وعلم النفس الأخلاقى، بالإضافة إلى أفكار أخرى متعلقة بطبيعة الفلسفة الأخلاقية كنسق بحثي[16].

واعترافًا بفضل هتشيسون فى تكوين العبقريات الفلسفية مثل عبقرية ديفيد هيوم، كتب آدم سميث Adam Smith (1723 – 1790) – اعترافًا بفضله أيضًا – إلى مدير جامعة جلاسجو، معترفًا بأنه يدين بالفضل الأول فى تشكيل عبقريته إلى الدكتور فرنسيس هتشيسون، حيث قال سميث مقولته الشهيرة "أن فضل هتشيسون لا يمكن نسيانه على الإطلاق" the Never to be forgotten، علمًا بأن هذه العبارة "لايمكن نسيانه على الإطلاق" ذُكرت أيضًا فى خطاب لآدم سميث يعترف فيه أيضًا بفضل ديفيد هيوم، وذلك عند وفاة هيوم عام 1776م، مع العلم أن هذه العبارة التى يدين فيها سميث بالفضل لكل من هتشيسون وهيوم لم تظهر فى كتاباته إلا لهذين الفيلسوفين العظيمين ألا وهما: هتشيسون وهيوم[17].

يتضح مما سبق، أنه عندما كان لكتابات هتشيسون أثرً عظيم فى جامعة جلاسجو، وذلك بعد كونه أستاذًا للفلسفة الأخلاقية بعد وفاة أستاذه "جيرشوم كارميشيل" Gershom Carmchael الذى وافته المنية عام 1729م، أُطلق عليه "أبو التنوير الإسكتلندى" حيث إنه الفيلسوف الأول الذى ينشق عن التقليد الأكاديمى فى محاضراته التى قام بتدريسها باللغة الإنجليزية بدلاً من اللغة اللاتينية[18]. وهذا إن دل على شىء، إنما يدل على القيمة الفلسفية الكبرى التى تمتع بها هتشيسون فى عصره، فقد كان المنبع الرئيس الذى أخذ عنه عباقرة القرن الثامن عشر، مثل هيوم وسميث، ولم يقف الأمر عند هذين التلميذين النجيبين فى اعترافهم بفضل أستاذهم، حيث يضيف "كلينتون" Clinton أن هتشيسون كان يتمتع بشهرة واسعة وسط تلامذته، وطلابه، مما جعلت أحدهم يصفه قائلاً "أنه كان يمتلك بلاغة لا تقاوم فى عرض محاضراته، وإقناعنا بها"[19].

من خلال ما سبق، تتضح أهمية نظرية هتشيسون فى الحاسة الخلقية بين السابقين، واللاحقين من الفلاسفة، ليس فقط فى اسكتلندا موطنه الرئيس، أو جلاسجو جامعته الأم، إنما

(16) Hutcheson, F. (2004). ***An Essay on the Nature and Conduct of the Passions and Affections***, With Illustrations on the Moral Sense, edited by Aaron Garrett, Mark H. Waymack, Hume Studies, volume 30, Number 1, April, p.208.

(17) Scott, W. R. ***The Never be Forgotten Hutcheson***, op.cit, pp.96,97.

(18) Clinton, B. MC. ***The Humanism of Francis Hutcheson***, op.cit, p.12.

(19) Ibid: p.13.

امتد تأثيره إلى شتى بقاع العالم، حتى أصبحت أعمال هتشيسون هى القوة الرائدة Leading Force فى الحركة الفلسفية المعروفة باسم "التنوير الإسكتلندي" Scottish Enlightenment، حيث كرس أول أعماله للدفاع عن "إيرل شافتشبرى الثالث" عام 1725م، بعنوان" بحث فى أصالة أفكارنا نحو الجمال والفضيلة"، وفيه وافق هتشيسون رأى شافتسبري القائل فيه، بأن البشرية جمعاء تشترك أخلاقيًا فى القول بالمحبة، وأن الجنس البشري لديه الدوافع، والاستجابات الأخلاقية التى تجعله مؤهلاً فى التمييز بين الأشياء[20]. كما أن الحاسة الخلقية تكمن فى الطبيعة البشرية لكل إنسان، لذلك أضفى هتشيسون الطابع الديمقراطى على الحاسة الخلقية ليجعلها ممكنة لجميع البشر[21].

يتضح مما سبق، أن هتشيسون لا يقصد الإنسان الفرد، إنما المجموع، حيث تبرز نظريته الأخلاقية بوضوح فيما اسماه بـ "الحاسة الخلقية"، وهذه النظرية بدورها كانت الملهمة للفلاسفة اللاحقين له، كما كانت لها أطر سياسية واضحة مما جعل أفكار هتشيسون الأخلاقية مهمة، وممكنة التطبيق. وهذا القول أكده بالفعل "كلينتون" فى ختامه لبحثه عن"النزعة الإنسانية فى فلسفة فرنسيس هتشيسون" بقوله "إنه على الرغم من عدم اعتبار هتشيسون كاتبًا عظيمًا أو مفكرًا من الدرجة الفلسفية الأولى إلا أن أفكاره الأخلاقية، والسياسية كان لها تأثير عميق على اللاحقين له، ليس فقط فى إنجلترا وأيرلندا، بل فى أوروبا وأمريكا المستعمرة، وهذا ما يؤكد على أن هتشيسون كان صاحب رؤية تقدمية فى الارتقاء بسُلم القيم الإنسانية"[22]. وهذا يبدو واضحًا فى نظريته عن الحاسة الخلقية أو السيكولوجية الأخلاقية.

أما الكلمة الختامية، والرئيسة فى نظرية هتشيسون الأخلاقية – كما يقول سكوت – "أن هتشيسون هو المعلم، والواعظ الدينى، ويمكن القول أيضًا أن هناك اثنين من الأناجيل التى تعكس فكره، الإنجيل الأول وهو مطالبته بتطبيق الروح العصرية الحديثة وأفكارها، مثل التنوير، والثقافة، والإنسجام بين الخير والجمال. أما الإنجيل الثانى فكان ذا طبيعة فنية لكى يجلب حوله عقول الشباب نحو المثل الأخلاقية، أضف إلى ذلك أن محاضرات هتشيسون عن الدولة كانت الملهمة والباعثة على وجود فكرة الاقتصاد السياسى عند آدم سميث"[23]. كما أصبحت فلسفة

(20) Carey, D. ***Locke, Shaftesbury and Hutcheson***, op.cit, p.150.
(21) Loc - cit.
(22) Clinton, B. MC. ***The Humanism of Francis Hutcheson***, op.cit, p.13.
(23) Scott, W. R. ***The Never be Forgotten Hutcheson***, op.cit, p.100.

هتشيسون الأخلاقية بوجه عام جزءًا من الأفكار التى شكلت النظام السياسى الأمريكى فى القرن الثامن عشر، حيث تم الاستعانة بكتبه، وكذلك فلسفته فى صياغة السياسة الأمريكية، حتى أصبحت أفكاره جزءًا من المنهج الاستعماري[24].

من خلال ما سبق طرحه، تتضح الأهمية الكبرى لنظرية هتشيسون فى الأخلاق بوجه عام، والتى تمثلت فى تطوير نظرية الحاسة الخلقية، وما يتبعها من أفكار حول الانسجام، والفضيلة، والتوحيد بين قيم الخير والجمال، حتى عُد هتشيسون مطور هذه النظرية ومُبدعها مع زميله اللورد شافتسبرى.

ثانيًا: الحاسة الخلقية.

يمكن القول أن المساهمة الحقيقية لهتشيسون فى حقل الدراسات الأخلاقية، هى تلك التى يمكن وصفها بـ"الحاسة الخلقية"، حيث إن هذه الحاسة التى ينادي بها لديها قُدرة كلية فى الجمع بين لحظات الإدراك الخلقى، والحكم الخلقى، وكذلك الأسس الطبيعية للاستجابات الأخلاقية[25]. وهذه الحاسة الخلقية سواءً كانت فى أفعالنا أو أفعال الآخرين ليست فى معزل عن حواسنا الطبيعية الأخرى، بل هى مشتركة معها. وهذا يعنى أنه إذا كانت رغبتنا فى الفضيلة Virtue متساويةً مع فكرة الاهتمام، فإن إحساسنا، وإدراكنا لجمالها لا يتساوى أبدًا مع الاهتمام بها[26].

كما أن هذه الحاسة الخلقية التى يقول بها هتشيسون، غير مقترنة بأفكار غريزية أو اقتراحات عملية، وهذا يعنى أنها قائمة على الإدراك العقلى المباشر لطبيعة الأفعال التى يتم ممارستها فى الحياة الإنسانية، سواءً كانت مقبولة أخلاقيًا أم غير مقبولة، وذلك عندما نتمكن من ملاحظتها، بغض النظر عن تحقيق الفائدة من عدمها عند ممارسة تلك الأفعال[27]. وبهذا المعنى الذى قدمه هتشيسون، فإن نظريته فى الحاسة الخلقية تُشكل جزءًا كبيرًا من نظريته فى

(24) Hutcheson, F. (2004). ***An Inquiry into The Original of Our Ideas of Beauty and Virtue***, edited, Wolfgang Leidhold, liberty fund, inc. Indiana, (editor`s introduction), p.x.

(25) Carey, D. ***Locke, Shaftesbury and Hutcheson***, op.cit, p.151.
(26) Hutcheson, F. ***An Inquiry …,*** op.cit, p.95.
(27) Ibid: p.99.

الإحساس الداخلى، والتى تتألف بدورها من قدرة الإنسان على الاعتراف بالجمال، ومن ثم الموافقة عليه بأشكاله المختلفة[28].

إذا كانت الحاسة الخلقية التى ينادى بها هتشيسون عبارةً عن جزءٍ مهمٍ من الحاسة الداخلية فى الإنسان، فإن مدلولها يختلف تمامًا عن مدلول حواسنا الخمس المعروفة، حيث إن وظيفة هذه الحواس الخمس هى إدراك أعراض المحسوسات، أما الحاسة الخلقية فوظيفتها إدراك خيرية الأفعال وشرها، وإصدار أحكام تُقيّم هذه الأفعال. وهذه الحاسة قوة باطنية يولد بها الإنسان – دون الحيوان – مزودًا بها، وهي بطبيعتها تميز بين الخير والشر، فتُغري صاحبها بفعل أولهما، وتحمله على تجنب ثانيهما، دون انتظار الجزاء من نفعٍ أو ضرر، لذة أو ألم، سعادة أو تعاسة، وهذه الحاسة تشبه حاسة الجمال أو قوة التفكير من حيث كونها متأصلة فى طبائع البشر[29]. وعليها تكون هذه الحاسة الخلقية فطرية فى شعور كل إنسان. فهى نوع من الإحساس، مشترك بين البشر جميعًا، وفوق كل هذا هى حاسة مباشرة عند جميع البشر[30].

يؤكد هتشيسون أن التباين واضحٌ بين الحاسة الداخلية والحواس الخارجية، فالأولى تُعنى تلك القوى العقلية أو تحديدات determination العقل، التى من خلالها يمكن أن نُدرك أو نتصور كل ما تحويه فى باطنها من أفعال، وعواطف، ورغبات، وأحزان، وهذه القوى يُطلق عليها بعض الكُتاب المشهورين اسم "الوعي" consciousness أو الانعكاس reflection[31]، وهذه الحاسة الداخلية تؤثر على كل أفعال العقل، وأحاسيسه، وأنماطه: كالحكم، واليقين، والشك، والفرح، والحزن، والرغبة، والنفور، وكذلك الحب والكراهية، والفضيلة والرذيلة[32]. أما الحواس

(28) Sheridan, P. (2007). ***The Metaphysical Morality of Francis Hutcheson***, Springer Science + Business Media B.V, p.271.

(29) توفيق الطويل: **فلسفة الأخلاق – نشأتها وتطورها**، مرجع سابق، ص 344.

(30) Turco, L. (2003). **Moral Sense and The Foundation of Morals**, An Essay in, *The Scottish Enlightenment*, edited by, Alexander Broadie, Cambridge University Press, New York, p.138.

(31) Hutcheson, F. (2007). ***Philosophiae Moralis Institutio Compendiaria with A Short Introduction to Moral Philosophy***, Book I, Edited and with an Introduction by Luigi Turco, liberty fund, inc. U. S. A, p.27.

(32) Hutcheson, F. (2006). ***Logic, Metaphysics, and the natural sociability of mankind***, Book I, edited by, James Moore and Michael Silverthorne, liberty fund, inc. U. S. A, p.12.

الخارجية فلها أفكار أخرى، حيث تهتم بإدراك الشيء المادي الذى يؤثر على أعضاء الجسم[33]. وبالتالى تُطلق على القوة الجسدية التى تثير أفكار اللون، الصوت، الرائحة، التذوق، والحرارة والبرودة، لكونها كيفيات qualities عرضية أو ثانوية، أو الكيفيات الحسية بالمعنى الدقيق للمصطلح، حيث لا ندرك أى فكر منهما إلا بحس واحد فقط. أما الأفكار التى يمكن إدراكها بأكثر من حاسة سواءً كانت من حيث الرؤية أو اللمس مثلاً، كفكرة التمدد، والشكل، والحركة، فهى تمثل كيفيات أولية primary أو كيفيات حقيقية[34].

أما الأفكار الأكثر دقةً، والأكثر تجريدًا فتعزى إلى العقلانية الخالصة، كالفكرة الميتافيزيقية مثلاً، ولكن الحقيقة تشير إلى أن الأفكار تنشأ جميعها من التفكير أو الحس الخارجي[35]. فالأحاسيس الداخلية والخارجية – كما يشير هتشيسون – تُعدان مصدرنا الرئيس فى فهم الأفكار[36]. مع العلم أن هناك فكرتين يمكن إدراكهما بالأحاسيس الداخلية والخارجية معًا، وهما فكرتا الديمومة duration، والعدد[37].

من خلال ما سبق، يمكن القول أن الحاسة الخلقية عند هتشيسون إذا كانت تمثل جزءًا من الإحساس الداخلي، فهى قد تأثرت كثيرًا بنظرية اللورد شافتسبري، حيث استعار منه – فيلسوفنا – مصطلح الحاسة الخلقية، التى يكمن مضمونها فى وجود قوة فطرية، وعالمية نحكم من خلالها على القيمة الأخلاقية للفعل[38]. حيث إن الفعل والعاطفة مرتبطان ببعضهما، وبينهما علاقة واضحة، فهما ليس شيئين مختلفان[39]. وبهذا المعنى تصبح الحاسة الخلقية عبارة عن إفتراض a postulation حول كيفية إدراك السلوك الخلقي، لذلك كانت هذه النظرية أساسًا قويًا فى تكوين المدرسة النفسية فى الأخلاق، والتى ضمت فى طياتها كل من: هيوم، هارتلي، وآدم

(33) Ibid: p.11.

(34) Ibid: p.12.

(35) Ibid: p.13.

(36) Ibid: p.11.

(37) Ibid: p.12.

(38) Brooks, G.P., Aalto, S.K. (1981). **The Rise and Fall of Moral AL Gebra: Francis Hutcheson and The Mathematization of Psychology**, *Journal of The History of The Behavioral Sciences* 17, p.343.

(39) Hutcheson, F. ***Logic…*,** Book II, op.cit, p.109.

سميث[40]. وعليها يمكن أن نُطلق على نظرية هتشيسون الأخلاقية مسمى "نظرية الأسس النفسية للأخلاق"[41]. أو كما أطلق عليها هتشيسون مسمى "نظرية الضمير أو الحاسة الخلقية"[42]، أو "نظرية الحاسة الإلهية" divine sense[43].

ومن الممكن أن نجمل ما سبق طرحه، فى القول بأن الحاسة الخلقية – كما جاءت فى كتابات هتشيسون – عبارة عن نوع من الإحساس الداخلي، ففي قرارة كل نفس إنسانية يوجد "الضمير"، وهذا الضمير عبارة عن إله داخلي، يجعلنا نشعر بالسعادة عند فعل الخير Good ، كما نشعر بالألم عند فعل الشر Evil ، وهذا الضمير قوة تقبع داخل النفس الإنسانية، لا تُرى بالعين المجردة، فهو قوة كامنة فى النفس، تكونت من الأفكار التى تم إدراكها بالحواس الداخية والخارجية معًا، فالارتباط بين الحواس يكوَّن المعرفة الحقيقية.

يؤكد هتشيسون أن الحاسة الداخلية أو الضمير، هى عبارة عن قوة من قوى الإدراك، وبهذه الحاسة الداخلية يمكن أن نعرف كل شيء يُضمره العقل، فكل إنسان يُعرف تمامًا أحاسيسه، وأحكامه، وتأملاته، ورغباته، ونواياه، وهذه الأمور لا يمكن إخفاؤها عن العقل الذى تسكن فيه، ومن خلال قوة العقل هذه يعرف كل إنسان نفسه، وكذلك التصور العام لهيئته، ويمكنه توجيه انتباهه لنفسه وأفعاله، أما فهم الخير فيدركه بالحاسة الداخلية[44].

إن هذا الضمير أو الإحساس النبيل – كما نعته هتشيسون – والذى تراه الطبيعة أنه المرشد فى الحياة، يستحق دراسة متأنية للغاية، لكونه القاضي فى الحياة بكاملها، ولكونه أيضًا القاضي لجميع القوى المختلفة، ومنه تنبعث كرامتنا الحقيقية، وتمايزنا الطبيعي، وسعادتنا العليا[45]. وهذا الضمير يوافق بشكل طبيعي على المشاعر الأكثر شمولية، وهو حقًا السلطة

(40) Brooks, Aalto**. *The Rise and Fall of Moral AL Gebra***, op.cit, p.344.

(41) Ibid: p.346.

(42) Hutcheson, F. ***Philosophiae Moralis…*،** op.cit, p.40.

(43) Ibid: p.42.

(44) Ibid: p.117.

(45) Hutcheson, F. ***Philosophiae Moralis…*،** op.cit, p.41.

الحاكمة فى الإنسان، وهو يظهر على الفور من خلال الطبيعة الخاصة لكل إنسان، لأنه يفترض أحكامه بالموافقة أو الإدانة تجاه أفعال السلوك الإنساني[46].

وهنا يتبادر إلى الذهن تساؤلٌ مهمٌ فى طبيعته، يكمن فى القول: هل كانت هناك علاقة بين الحاسة الخلقية والعقل فى فلسفة هتشيسون؟ بمعنى، هل تستند فلسفة هتشيسون إلى العقل كمصدر مهم من مصادر المعرفة الأخلاقية؟ أم اقتصرت نظرية هتشيسون الأخلاقية على الحس فقط؟ وما علاقة هذه النظرية بالدين؟

فى البدء يمكن القول، بأن نظرية هتشيسون الأخلاقية تُبنى على رفض العقل، كأساس للفلسفة الأخلاقية[47]، وبهذا القول تقف نظرية هتشيسون الأخلاقية على النقيض من النظريات الأخلاقية التى اعتمدت على العقل كأساس أول للأخلاقية، مثل نظرية اللياقة الأخلاقية Moral Fitness عند صموئيل كلارك[48]. ولهذا جاءت نظرية هتشيسون فى الأسس النفسية للأخلاق على النقيض من التفسيرات العقلانية، وكذلك فكرة الأنانية المفرطة، معتمدة على أن هناك مبادئًا سيكولوجية أخرى يجب مراعاتها إلى جانب العقل، وحب الذات. فإذا كانت الطبيعة أوجدت الإنسان مزودًا بحواس أو قوىً جوهرية – كالعقل مثلاً – لكي يعيش فى هذه الحياة، فإن هذا الإنسان لديه – أيضًا – قوىً باطنيةً، وهى: الإحسان benevolence أو الفضيلة Virtue ، وكذلك الحاسة الخلقية، فالأولى ، تدفعنا إلى فعل الخير good ، اما الثانية فهى تجربة باطنية حول مشاعر الموافقة أو الرفض نحو سلوكيات وتصرفات الآخرين[49]. أو كما عبر عنها هتشيسون بقوله "إن إحساسنا حول الخير أو الشر الأخلاقى فى أفعال الآخرين غير مقيد بأى أمور مادية أو عقلانية، بل هو نابع من طبيعتنا الداخلية"[50].

ولا يقتصر الأمر على رفض العقل فى فهم الخيرية الأخلاقية، حيث أكد هتشيسون أن إدراكنا لهذه الخيرية الأخلاقية غير مشتقٍ من العادات والتقاليد أو التعليم والدراسة، حيث لا تمنحنا هذه الأفكار أى أمور جديدة لفهم الخيرية الأخلاقية، مع العلم أن هذه الأفكار قد تكون

(46) Ibid: p.42.

(47) Iwasa, N. (2011). ***Hume's Alleged Success over Hutcheson***, Synthesis Philosophica, 52, p.324.

(48) Sheridan, P. ***The Metaphysical Morality of Francis Hutcheson***, op.cit, p.263.

(49) Brooks, Aalto**.** ***The Rise and Fall of Moral AL Gebra***, op.cit, p.347.

(50) Hutcheson, F. ***An Inquiry …,*** **op.cit,** p.96.

مفيدة مستقبلاً، إذا كانت نتائجها لا تظهر فى الوقت الراهن[51]. وعليها يكون كل فعل يمكن القيام به سواءًا كان خيرًا أم شرًا أخلاقيًا، لابد أن يكون مبنيًا على بعض الدوافع والعواطف حتى يمكن القيام به، وأيًا كان هذا الفعل فضيلة أم رذيلة vice ، لابد أن يُبنى على الدافع أو العاطفة[52].

لا يكتفى هتشيسون برفض العقل فى تفسير الأخلاق الإنسانية، بل يدين جميع الفلاسفة الذين استندوا فى فلسفاتهم الأخلاقية إلى العقل، حيث يقول فى ذلك داحضًا العقلانية، "إذا كانت العقلانية هى شخصية الفضيلة، وهى تدل على نوع من أنواع التطابق مع الصدق، كما أخبرنا بها أولئك الفلاسفة الذين أقروها بأنها الفكرة الأصيلة فى فهم الخير الأخلاقي – مثل صموئيل كلارك – وبالتالى تكون العقلانية سابقة على الإحساس أو العاطفة، فإذا كانت العقلانية سابقة على الإحساس، فكيف نُفسر فى هذه الحالة وجود الأحاسيس والعواطف ذاتها فى الإنسان، لأننا نحن الذين نمتلك الحكم على أنفسنا، وعليها يجب أن يكون الإحساس هو الفكرة الأصيلة والرئيسة للخير الأخلاقى"[53]. وعليها، يجب أن يُعاد النظر فى كل نوعٍ من أنواع الخير، والذى يكتسب قيمته من خلال تحقيقه للسعادة، من خلال بعض القوى أو الإحساس المباشر[54].

وإذا كان هتشيسون يقف على النقيض من كلارك فى رفض العقل كقوة لفهم الخير الأخلاقي، فإنه هنا يتفق إتفاقًا تامًا مع تلميذه ديفيد هيوم الأسكتلندى، حيث أشار إلى ذلك الكثير، ومنهم "لوجي تركو" أحد المهتمين بفلسفة هتشيسون، حيث يقول: "فى عام 1739م تلقى هتشيسون نسخة من الكتابين الأول والثانى من رسالة عن الطبيعة البشرية لديفيد هيوم، وبعد أشهر قليلة أرسل هيوم إلى هتشيسون مخطوطًا يتضمن كتابه الثالث عن الأخلاق Morals ، وبعد أن كان رد فعل هتشيسون إيجابيًا عن الكتابين الأوليين، إلا أن الاختلاف ظهر بينهما فيما يتعلق بالأخلاق، وهذه الاختلافات جاءت من خلال أربع رسائل، أرسلها هيوم إلى هتشيسون، وكان على هيوم أن يدافع عن نفسه ضد اتهام هتشيسون له بأن فلسفته الأخلاقية تتصف بعدم الدقـء فى مسألة الفضيلة، كما قام بنقده أيضًا فى بنائه لفكرة الطبيعة على العلل النهائية، فى حين أن الفيلسوفين اتفقا على أن الأخلاق تُبنى على المشاعر والأحاسيس، ولا تُبنى على العقل

(51) Ibid: p.99.
(52) Ibid: p.101.
(53) Hutcheson, F. ***An Essay …,*** op.cit, p.138.
(54) Hutcheson, F. ***Philosophiae Moralis…*** ، op.cit, p.28.

بأى حال من الأحوال"[55]. فى حين أن هيوم كان على النقيض من أستاذه هتشيسون، فى قوله بأن الإحسان ليس هو الفضيلة الرئيسة فى الأخلاق، كما رأى أن العدالة فضيلة مصطنعة[56].

إذا كان هتشيسون يقوم برفض العقل، فإن هذا الرفض لم يكن صارمًا كما كان عند هيوم، حيث استبعد هيوم العقل بكافة صوره، وأشكاله، نتيجةً لإيمانه المطلق بالتجربة الحسية، وارتباط العلة بالمعلول، فكل الاستدلالات المتعلقة بأمور الواقع تُبنى – عند هيوم – على علاقة العلة بالمعلول[57]. بينما هتشيسون فى رفضه للعقل وإقراره للحاسة الخلقية أو الضمير لم يكن كتلميذهِ هيوم، حيث أدرك هتشيسون أنه إذا كان الخير يتميز عن الشر من خلال الحاسة الخلقية، فإن الأشياء النافعة فى حياتنا يتم إدراكها من خلال العقل[58]. وإذا كان الصدق المنطقي يُعني تطابق القضية مع الأشياء ذاتها، فإن الصدق الأخلاقي يتضمن تطابق القضية مع شعور العقل[59]. وكذلك تتشكل الأحكام، ووجهات النظر دائمًا من الحكمة أو الاجتهاد الذى يمتلكه العقل، وذلك من خلال مؤشرات الخير والشر التى تُظهرها الأشياء ذاتها، كما تخرج الإرادة أو الأفعال من العواطف العنيفة للعقل[60]. وهذا القول يختلف مع هيوم تمامًا، حيث رفض العقل رفضًا تامًا، فقد وصل باستنتاجاته إلى أن العقل لا شيء سوى حزمة من التصورات المختلفة Mind as a bundle of perceptions التى تنتج بعضها البعض، بسرعة لا يمكن تصورها وهى فى تدفق دائم[61].

إن رفض هيوم للعقل هنا يمكن تبريره بأن هيوم فيلسوف تجريبي صارم، يعتمد دائمًا على الملاحظة والتجربة، بينما هتشيسون فى الأصل رجل دين، فإذا كان هيوم – كما قيل – أنه فيلسوف أخلاق وليس واعظًا أخلاقيًا، فإن هتشيسون يوحد بينهما، حيث يعمل على مساعدة

(55) Ibid, (editor`s introduction.), p. xviii.

(56) Ibid: p. xix.

(57) بهاء درويش: **ألفريد جولس آير – من الوضعية المنطقية إلى التحليل الفلسفي**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2001، ص 232 بتصرف.

(58) Hutcheson, F. ***Logic…,*** Book II, op.cit, p.121.

(59) Ibid: p.80.

(60) Ibid: p.97.

(61) Ainslie, D. C. (2001). ***Hume`s Reflections of the Identity and Simplicity of Mind,*** Philosophy and Phenomenological Research, Vol.62, No.3 (May), p.559.

تلامذته فى إعداد المواعظ الدينية[62]. فى حين طرح هيوم العقل من فلسفته بوجه عام، حيث يقول: "إنه لا يمكن الائتمان إلى استنتاجات العقل، حيث يمكن المغالطة فيها، فالعقل بطىء فى عملياته، ضامر تمام الضمور خلال مرحلة الطفولة الأولى، وهو فى أحسن الأحوال معّرض للخطأ، وسوء التقدير فى أي مرحلة من مراحل الحياة"[63]. وعليها فإن العقل وحده لا يمكن أن يؤثر فى الأفعال، لأنه عبد للعواطف[64].

أما عن موقف هتشيسون من تأسيس نظريته الأخلاقية على دعائم دينية، فإننا نلاحظ أن هتشيسون رجل دين، وواعظٌ داخل الكنيسة، ولكنه لم يُصرح حقيقةً بأن الأخلاق تُبنى على الدين أو ترتكز عليه، وقد أكد على ذلك بقوله "ان حواسنا الأخلاقية لا تُبنى على الدين"[65]. وهذا القول لا يقودنا إلى نعته بأنه فيلسوف كافر مثل هيوم، الذى كانت كتاباته معادية بشكل واضح للمسيحية[66]، بينما كان هتشيسون معترفًا بأن الإهمال تجاه الله تعالى هو أعظم ضرر للعقل الإنساني، وأن الإنسان لا يستحق أن يكون كائنًا عقلانيًا فى حالة إزدرائه المباشر لله أو فى حالة الإهمال التام[67].

ويؤكد هتشيسون على ما سبق، بقوله "ربما يحق لنا القول بأنه توجد ميزة ثابتة تفوق كل الميزات فى تلك الأفعال التى نقوم بها على أساس الخيرية الأخلاقية، وأن هذه الميزة قائمة على الإستحسان، وأن الدافع فى القيام بها ما هو إلا حب لتلك الأفعال، مما يجعلنا فى هذه الحالة نفترض افتراضًا بأن الإله سوف يكافئنا عليها"[68]. والدليل على ذلك، أن الكثير من البشر فى الوقت الحالى، لديهم أفكار إيجابية عن الشرف Honour ، والإيمان Faith ، والكرم

---

(62) توفيق الطويل: **فلسفة الأخلاق – نشأتها وتطورها**، مرجع سابق، ص 355.

(63) ديفيد هيوم: **تحقيق فى الذهن البشري**، ترجمة د. محمد محجوب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008م، ص85.

(64) محمد مدين: **نظرية القيمة عند ديفيد هيوم – بحث فى إعادة بناء الرسالة**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997، ص5.

(65) Hutcheson, F. ***An Inquiry …*, op.cit,** p.96.

(66) Holland, A. T. (2005). ***Natural Belief and Hume`s Philosophy of Religion***, degree of Doctor of Philosophy, Philosophy dept., University of Utah, p.9.

(67) Hutcheson, F. ***Philosophiae Moralis…*،** op.cit, p.40.

(68) Hutcheson, F. ***An Inquiry …*, op.cit,** p.96.

Generosity ، وكذلك العدالة. وهذه الأفكار الموجودة فى طبيعتنا البشرية تمقت بالفعل أى أفكار أخرى مخادعة، وغير عادلة، وذلك دون اعتبار أن هناك ثوابًا وعقابًا فى المستقبل(69).

من خلال ما سبق، يتضح أن هتشيسون فى نظريته الأخلاقية يختلف عن هيوم، لكونه لم يرفض العقل كليةً، كما أنه لم يرفض الدين، بل كان داعية للمسيحية فى عصره، وعليها فإنه فيلسوف مؤمن بالدين، كما كان مؤمنًا بالحاسة الخلقية.

ثالثًا: العلاقة بين الإحسان والسعادة.

ما الإحسان ؟ وما علاقته بالخير أو الفضيلة ؟ وإلى أى حد فهم هتشيسون فكرة السعادة؟ وما العلاقة بين الإحسان والسعادة؟ وهل يمكن القول بأن هتشيسون أول فيلسوف للنفعية الأخلاقية فى القرن الثامن عشر الميلادى؟

فى البدء، يمكن القول أن الفلسفة الخلقية فى القرن الثامن عشر، قد اتجهت نحو إقرار الضمير وتوكيده كأساس للأخلاقية، وهذا الضمير عبارة عن زمرة من الوجدانات التى تقيم فى قلب الإنسان، وليس فى رأسه. وهذا الخليط من المشاعر هو الذى يُشعرنا بالارتياح حين نأتى بخير، وبالاستياء حين نقترف شرًا، وهذه الوجهة من النظر ظهرت بوضوح فى كتابات: شافتسبري، هتشيسون، هيوم(70). حيث إن فلسفة هؤلاء جميعهم، وبخاصة هتشيسون، تهدف إلى معرفة الصواب والخير الذي يسعى إليه البشر بأنفسهم من خلال قواهم الخاصة(71).

وبالنسبة لحب الإحسان، فإن الاسم ذاته يستبعد المصلحة الذاتية أو حب الذات، فنحن لا ندعو ذلك الرجل بأنه محسن فى أفعاله، إلا إذا كان فى الواقع يُحقق فائدة للآخرين، ولكن إذا كان ذلك الرجل ينوي مصلحته الخاصة دون أى رغبة منه فى سعادة الآخرين، فإن موقفه لا يعبر بأى حال من الأحوال عن الإحسان(72). علمًا بأن جميع البشر لديهم ملكة حب الذات، كما لديهم – أيضًا – الإحسان، وبهذا المعنى يكون الحب الذاتي نقيض الإحسان، لذا يجب اعتبارهم قوتين تجبران الإنسان على تأدية الفعل، وفى بعض الأحيان يتآمرون على الشخص الذى يقوم

(69) Loc - cit.

(70) توفيق الطويل: **فلسفة الأخلاق – نشأتها وتطورها**، مرجع سابق، ص 181.

(71) Hutcheson, F. ***Logic…,*** Book II, op.cit, p.121.

(72) Hutcheson, F. ***An Inquiry …*, op.cit,** p.103.

بالفعل، كما لا يهتمون ببعضهم البعض فى أحيان أخرى، إضافة إلى كونهم متعارضين إلى حد ما[73].

لقد انتهى هتشيسون بفكرة الإحسان أو الأريحية إلى القول بأن الآباء يحرصون على خير أطفالهم ولو لم يُصبهم منه شيء، لأن بينهم وبين أطفالهم رابطة توحد بين الفريقين، فالطفل جزء من أبيه، فإذا عاون الأب ابنه ارتدت المعونة إليه، وكذلك الحال بين الناس، فكل فرد لبنة فى بناء أو عضو فى مجموع، وبالحب المتبادل يخدم الفرد هذا المجموع، بحبث لا تتعارض محبته لنفسه مع صالح الكل الذي ينتمي إليه[74]. وعليها تتضح فكرة الفضيلة بكونها غير تابعة لأى مصلحة من مصالح حب الذات[75]. وبالتالى، فإن هتشيسون يرفض فى نظريته الأخلاقية فكرة حب الذات أو المصلحة، حيث إن المصلحة الذاتية أو حب الذات تتعارض مع فكرة الإحسان الخيرية.

إن ما قصده هتشيسون فى القول بالإحسان، كانت غايته فى تعزيز الخيرية الأخلاقية، ودحض حب الذات الأناني، حيث يرى ان كلمة الخيرية الأخلاقية تشير إلى الكيفية التى ينبغي علينا أن نسلكها فى أفعالنا، والتى تستحق الإستحسان approbation والحب لمن يقوم بها، من هؤلاء البشر الذين لا يرجون أى فائدة من وراء هذه الأفعال. أما الشر الأخلاقي فيشير إلى أفكارنا عن الكيفية المناقضة للخيرية الأخلاقية، والتى تثير نفورنا، وكراهيتنا لمن يقوم بتلك الأفعال، حتى وإن كانت هذه الأفعال من أشخاص ليس فى طبيعتهم ممارسة هذه السلوكيات الشريرة[76].

وإذا كان هتشيسون يرفض فكرة الحب الذاتي فى مقابل الإحسان، فإنه أيضًا يرفض فكرة الحب الجنسي، لأنه لا يرقى إلى مستوى الفضيلة، حيث يقول، "وفيما يتعلق بالحب، يجب أن نكون على حذر حين نجعله قاصرًا فى معناه على أنه مجرد حبٍّ جنسيٍّ، لا يحتوي فى داخله على أى فضيلة، فالحب الذي من هذا النوع ما هو إلا مجرد رغبة فى تحقيق المتعة الجنسية، ولا يمكن أن نعترف به أبدًا كفضيلة أخلاقية"[77]. علمًا بأن الحب ينقسم إلى حب الرضا الذاتى

(73) Ibid: p.104.

(74) توفيق الطويل: **فلسفة الأخلاق – نشأتها وتطورها**، مرجع سابق، ص 344.

(75) Hutcheson, F. ***An Inquiry …,*** **op.cit**, p.102.

(76) Ibid: p.85.

(77) Ibid: p.102.

أو الاحترام الذاتى، وحب الإحسان[78]. وعليها تكون فضائل الحب والكراهية هى العواطف الأساسية فى حقل الدراسات الأخلاقية، بغض النظر عن كونها خيرة أخلاقيًا أم شريرة، أما العواطف الأخرى، فما هى إلا تعبيرات مختلفة لهاتين العاطفتين الأساسيتين[79].

من خلال ما سبق، نستنتج أن هتشيسون يُبني نظريته فى الخيرية الأخلاقية على أساس من فكرة الفضيلة أو الإحسان، وهذا الإحسان بدوره يرفض حب الذات، كما يمقت المصالح الفردية، وعليها تبدو فكرة الإحسان كأول أساس أخلاقي فى بناء صرح النفعية الأخلاقية، لأن الإحسان بدوره يؤدي إلى سعادة المجموع، ولا يبحث عن مصلحة شخصية، لأنه خيرٌ أخلاقيٌ، وهذا الأمر يقتضي أن يُلزم الإنسان نفسه بعدم الإضرار بالغير، وبالتالى كف الأذى عنه[80]، وهذا ما سنبرهن عليه لاحقًا، في قولنا، بأن هتشيسون فيلسوفٌ نفعيٌ يسبق كل من: بنتام، ومل، وهنرى سيدجويك.

النزعة النفعية نظرية أخلاقية[81]، تهدف إلى تحقيق أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس[82]. وهذا يُعد الهدف الأول عند جميع فلاسفتها، فالمعيار النفعي ليس هو تحقيق السعادة القصوى لفرد واحد، وإنما تحقيقها لجميع البشر، فالعقيدة النفعية تقرر أن السعادة هى الشيء الوحيد المرغوب فيه، وهي غاية منشودة، وكل الأشياء الأخرى ما هى إلا وسائل لتحقيق هذه الغاية[83]. وهذه النفعية الأخلاقية وجدت فى أعمال كل من: بنتام فى كتابه "مبادىء الأخلاق والتشريع" عام 1789م، وجون ستيوارت مل فى كتابه "الأخلاق" عام 1861م، وكذلك وجدت فى أعمال فيلسوف مدرسة كيمبردج "هنري سيد جويك" وبخاصة فى كتابه "منهج الأخلاق" عام 1874م، والذى قرر فيه أن النفعية نظرية أخلاقية تهتم بالسلوك cxonduct، الذى يمكن أن يكون فى أى حال من الأحوال صوابًا right بطريقة موضوعية، عندما يُنتج أكبر

(78) Loc - cit.

(79) Loc - cit.

(80) حسين علي: **العلم والقيم الأخلاقية – رؤية معاصرة**، أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م، ص 53.

(81) Darwish, B. (2009). ***Rethinking Utilitarianism*,** in teaching ethics, vol.10, p.6.

(82) Ibid: p.13.

(83) Westermark, E. (1932). ***Ethical Relativity***, Kegan Paul, Trench, Trubner & Co, LTD, London, p.6.

قدر من السعادة بوجه عام، وهذا معناه، مراعاة جميع البشر الذين تتأثر سعادتهم بهذا السلوك[84].

من خلال ما سبق، يتضح أن مُعظم الكتابات الأجنبية، والعربية على السواء تجاهلت الدور الذى قام به هتشيسون فى بناء صرح النفعية الشامخ، باستثناء "برتراند رسل" فى الغرب، والدكتور: توفيق الطويل فى الدراسات العربية، حيث أكد هؤلاء أن هتشيسون أول فيلسوف لمذهب المنفعة العامة، وذلك من خلال تتبعنا لتاريخ نشر كتابات أهم من ساهموا فى حقل الدراسات النفعية فى الأخلاق، حيث نشر هتشيسون كتابه "تحقيق فى أفكارنا الأصيلة نحو الجمال والفضيلة" عام 1725م، وعليها يكون مذهب المنفعة قد اشتق بوجه خاص من هذا الكتاب[85]، أى قبل أن ينشر بنتام كتابه بنصف قرن من الزمان، وإذا كان بهاء درويش، قد حاول أن يجعل من النفعية الأخلاقية واقعًا عمليًا خصبًا، لكي يصوغ أفكارها مع مقتضيات الواقع التطبيقي فى القرن والعشرين، إلا أنه أغفل فى دراسته فرنسيس هتشيسون، حيث حصر فلاسفة المذهب النفعي فى ثلاثة، وهم: بنتام، ومل، وسيدجويك[86].

وتأكيدًا لما سبق، فإننا نجد فى كتابات هتشيسون عبارة واضحة تتضمن مبدأ السعادة القصوى، والتى من خلالها يمكن القول أن كل من: هيوم وبنتام أخذ عنها نزعتهما النفعية، ولكن على الرغم من كون كتابات هتشيسون فى النفعية واضحة، إلا أن اسمه لم يذكر مطلقًا فى كتابات بنتام[87]. وعليها يمكن القول أن عبارة تحقيق أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس، والتى عُرفت بها نظرية بنتام ومل، تم استعارتها بطريقة مباشرة من كتاب هتشيسون فى التحقيق[88]. فالمرء يصبح فاضلاً – على تعبير هتشيسون – إذا كانت نيته خدمة الإنسانية جمعاء، حيث لابد من تحقيق أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس[89].

---

(84) Darwish, B. ***Rethinking Utilitarianism*,** op.cit, p.2.

(85) برتراند رسل: **حكمة الغرب، الجزء الثاني، الفلسفة الحديثة والمعاصرة**، ترجمة: فؤاد زكريا، عدد يوليو 365، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009م، ص 282.

(86) Darwish, B. ***Rethinking Utilitarianism*,** op.cit, pp.2,4.

(87) Mousourakis, G. (1997). ***Utility and Rights in Francis Hutcheson Theory,*** Indian Philosophical Quartley, Vol. xxiv, No.4, October, p.528.

(88) Loc – cit.

(89) Gill, M. B. ***A Fundamental Difference between Hutcheson and Hume*,** op.cit, p.25.

ولكن، كيف يمكن أن نجعل رغباتنا متجهة نحو سعادة الآخرين دون أن نضع فى الاعتبار مصلحتنا الخاصة ؟

يرى هتشيسون أن الإجابة على هذا التساؤل، تكمن في السبب ذاته الذي يجعلنا نحاول تحقيق السعادة لأنفسنا، فلابد أن يكون هو السبب ذاته لتحقيق السعادة للآخرين، حيث نشملهم بالاحترام، والكرم، ومن هذه الفضائل النبيلة ينشأ حب التقدير أو الإحسان(90). علمًا بأن رغبتنا فى التقدير أو الإحسان لا تقوم على حب الذات أو أى مصلحة أخرى، فإذا كان هناك بعض العواطف الأخرى التى تنشأ فيها الفضيلة من حب الذات، مثل عاطفتي الخوف أو القسوة الناشئة عن إدراك الخيرية، والقوة، والعدالة، فإن هذا يعد نوعًا من الأنانية(91).

يؤكد هتشيسون على أن حب التقدير والإحترام ينضمان إلى الإحسان، حيث لا توجد تناقضات قوية فيما بينهم، فالإحسان يفترض درجة صغيرة من التقدير، لأنه قد يكون فى الواقع إحسانًا قويًا، لذا يلزمه درجة صغيرة من التقدير، وبالتالي فلابد من كراهية الرذائل الفعلية، وهذا ما يحدث مع الأب تجاه إحسانه لأحد أطفاله، عندما يستشعر هجر إخوته له(92)، فالإحسان يفترض دائمًا أنه قادر على الأمر بالفضيلة، وبالتالى يكون البشر سعداء أو بائسين فى الحياة بناءً على ما قدموه لأنفسهم من الفضيلة أو الرذيلة(93). علمًا بأن السلوك السيء bad behaviour يؤدي إلى آلام خطيرة، كما يؤدي إلى الموت فى بعض الأحيان(94).

وتأكيدًا للقول بأن هتشيسون هو رائد النفعية الأخلاقية فى القرن الثامن عشر، يقول "إنه من دواعي سرورنا أن ننظر إلى الأشياء التى بذلنا فيها مجهودًا مضنيًا، ومهارةً شاقةً لتلبية حاجاتنا، أن نحققها لأولئك الذين لا يتوقعون الحصول منها على أى فائدة"(95). وعليها يجب أن ندرج ضمن هذه الحواس الانعكاسية فكرة الحس المشترك، فالإنسان يشعر بالسعادة عندما يحقق إنسان آخر أكبر قدر من الخير، وأن يحزن إذا حزن الآخر، طالما لا يوجد عداء أو استياء أو

(90) Hutcheson, F. ***An Inquiry …,*** op.cit, p.104.
(91) Ibid: p.106.
(92) Ibid: p.106.
(93) Hutcheson, F. ***Logic…,*** Book II, op.cit, p.4.
(94) Ibid: p.120.
(95) Ibid: p.119.

أي سلوك مشين فى المجتمع، ومن خلال هذا النسيج الرائع لطبيعتنا البشرية، فإن معظم مشاعر وعواطف الآخرين تثير فينا مشاعر وعواطف مماثلة من خلال نوع راقٍ من التأثير الودي[96].

يرى هتشيسون أن هناك درجاتٍ مختلفةً من الاستحسان، والاستهجان، وذلك أن بعض أنواع الفضائل أكثر جمالاً من غيرها، وبعض أنواع الرذائل أكثر قُبحًا من غيرها، وهذه الفضائل الأكثر شمولية هى التى تسعى إلى تحقيق أكبر قدر من السعادة لكل ما يوجد فى الطبيعة الإنسانية ذات الإحساس القيم[97]. حيث إن سعادة البشرية بوجه عام، أو أى جزء فيها ذى قيمة، هو الغاية القصوى والنهائية لتلك السلسة من الرغبات[98].

يوضح هتشيسون هنا أننا لا نمتلك حبًا للذات فحسب، بل لدينا عواطف خيرة تجاه الآخرين بدرجات مختلفة، مما يجعلنا نرغب فى سعادتهم كغاية قصوى، دون النظر إلى أى سعادة خاصة، وبهذه الحاسة الخلقية التى نملكها تجعلنا نوافق على كل أنواع المودة سواءً فى أنفسنا أو فى الآخرين، وكذلك كل ما يندرج تحت إطار هذه المودة، دون أن يكون لدينا رؤية لسعادتنا الخاصة[99].

تشير السعادة إلى الأحاسيس الجميلة من أى نوع، كما تشير إلى الحالة المستمرة لهذه الأحاسيس الجميلة، أما البؤس فهو نقيض هذه الأحاسيس الجميلة، فكل الأفعال التى تؤدي بصاحبها إلى الحصول على السعادة هى أفعال نافعة، أما الأفعال التى تؤدي إلى البؤس والشقاء فهي أفعال ضارة[100]. حيث إن السرور والألم لهما تأثيرٌ جسديٌّ على الروح، وذلك على الرغم من كون تأثيرهما عابرًا وقصير الأجل، فالأشياء التى تثير إحساسنا بالإمتنان، والرضا تسمى خيرًا، وما يثير فى النفس الألم والإضطراب يسمى شرًا[101].

يحاول هتشيسون أن يبرهن على سعادة المجموع، لكي يوضح الفرق بين سعادة المجموع وبين المصلحة الفردية أو حب الذات، فيقول "اسأل شخصًا يرغب فى تحقيق سعادته الخاصة، أو لديه ملكة حب الذات، ما الذي يدفعه فى الرغبة نحو تحقيق الثروة، سوف يجيب بأن الثروة

(96) Loc - cit.

(97) Hutcheson, F. ***Philosophiae Moralis…***، op.cit, p.26.

(98) Hutcheson, F. ***An Essay …,*** op.cit, p.140.

(99) Ibid: p.119.

(100) Ibid: p.133.

(101) Hutcheson, F. ***Philosophiae Moralis…***، op.cit, p.26.

تجلب المتعة والراحة، ثم اسأله مرة أخرى، وما سبب رغبتك فى المتعة أو الراحة؟ فهنا لا يوجد أى اقتراح يمكن القول أنه السبب المباشر للمتعة، وهذا الاقتراح صحيح، حيث توجد غريزة أو رغبة ثابتة فى طبيعتنا البشرية تدفعنا دائمًا نحو مواصلة مسيرة السعادة، وهكذا تكون الغريزة هى الحقيقة نفسها فى طبيعتنا البشرية"[102].

ينتهي هتشيسون من مناقشة العلاقة بين الإحسان أو الأريحية وبين السعادة النفعية إلى القول بأن، الحقيقة تقرر أن سعادة النظام بأكمله، سواءً كان ألفًا، أو مليونًا، افضل بكثير من تلك السعادة التى تكون لشخص واحد، لذلك إذا رغب الناس فى السعادة فيجب أن يكون لديهم رغبات كبرى نحو تحقيق أعظم قدر منها، وليس الأقل[103]. وأما السبب النهائي والمثير نحو تحقيق الخير العام، "أنه من الأفضل أن يكون الجميع سعداء" – والأفضل هنا هو الخير – ولكن لمن ؟ للمجموع أم الفرد ؟ فإذا كان الخير أفضل للمجموع، فإننا سنفترض هنا وجود الحياة الكريمة Good life أما إذا كان الخير أفضل للفرد، فإننا نفترض بالضرورة حُب الذات[104].

ثم أخيرًا، يحاول هتشيسون توضيح أن الفلسفة الأخلاقية بوجه عام، بمثابة فن تنظيم الحياة كلها، حيث تملك الغاية القصوى فى تحقيقه، وعليها تُعد الفلسفة الأخلاقية واحدة من أهم الفنون القيادية التى توجه مدى متابعة الفنون الأخرى[105]. وبالتالى لا يجب أن نستنتج مفاهيمنا الأولى عن الواجب الأخلاقى من الإرادة الإلهية، ولكن من دستور طبيعتنا الإنسانية الأكثر وضوحًا ومعرفة، ومن خلال هذه المعرفة الكاملة نكتشف تصميم خالقنا، ونيته، وإرادته فيما يتعلق بسلوكنا تجاه الأفعال[106].

من خلال ما تقدم، يُعد هتشيسون فيلسوف الحاسة الخلقية بعد أستاذه اللورد شافتسبري، حيث قام بتطوير المذهب، كما يُعد بحق رائد مذهب المنفعة العامة فى عصر التنوير الأوروبي، حيث يسبق فلاسفة هذا العصر الذى تغنت بأسمائهم الكتابات والبحوث، ويُعد هتشيسون أيضًا فيلسوف الأريحية أو الإحسان، كما يُعد الفيلسوف العاشق لسعادة المجموع.

---

(102) Hutcheson, F. ***An Essay …,*** op.cit, p.140.
(103) Ibid: p.141.
(104) Ibid: p.142.
(105) Hutcheson, F. ***Philosophiae Moralis…،*** op.cit, p.23.
(106) Ibid: p.24.

تعقيب ونقد.

إذا كان هناك بعض القصور فى نظرية هتشيسون الأخلاقية، فهذا لا يعنى أن هتشيسون أخطأ فى طرح نظريته، حيث تُعد هذه النظرية – أصيلة – لما عالجته من موضوعات جديدة فى عصره، كما كانت نقطة انطلاق دراسات علم النفس الأخلاقي فيما بعد، لما تتضمنته من معالجات سلوكية وسيكولوجية، أضف إلى ذلك أن هتشيسون ذاته يُعد الفيلسوف – المسكوت عنه – فى الدراسات الفلسفية عمومًا.

إن أهم ما يؤخذ على هتشيسون فى نظريته الأخلاقية، هو طرح العقل جانبًا بعيدًا عن نظريته، حيث أغفل الدور الكبير الذى يمتلكه العقل فى الحكم على الشعور أو العاطفة، فإن كانت هذه العاطفة أو الحاسة الداخلية تتحكم فى أفعالنا نحو الخير والشر، فإن العقل يحكم هذه العاطفة ذاتها، حتى لا تصبح كالريشة التى تذروها الرياح أينما شاءت، ةهتشيسون هنا شأن تلميذه – هيوم – الذى أغفل دور العقل فى أخلاقه معتمدًا على العاطفة أيضًا، حتى عُد هذا الموقف الهيومي بالفضيحة، أو كما عبر عنه الدكتور: محمد مدين، بفضيحة هيوم.

ومن جانب آخر، أغفل هتشيسون – أيضًا – الدور المهم للدين فى تكوين النظريات الأخلاقية، فعلى الرغم من إتفاق البشر على أن الدين يُعالج الأهداف والقيم، وهو الأساس الوجداني للتفكير والسلوك، ومن مهامه أيضًا وضع المثل العليا لحياة الأفراد والجماعات[107]، إلا أن هتشيسون الذى يُعد أحد رجال الدين فى الكنيسة، أسس نظريته الأخلاقية بعيدًا عن الدين، وإذا كان الأمر كذلك – كما ذهب هتشيسون – فى قوله بأن الأخلاق تؤسس بعيدًا عن الدين، ففى هذا الحالة تختلط الفضيلة بالرذيلة، طالما لا وجود بعد الموت للثواب والعقاب، فلماذا يفعل الإنسان الخير فى الدنيا فى حالة عدم وجود مكافأة من الله تعالى بدخول الجنة، والبعد عن النار، لذا تحطمت نظرية هتشيسون الأخلاقية لبعدها عن الدين، وذلك على الرغم من جديتها، وحداثتها فى عصره.

وتبرز أهمية العلاقة بين الدين والأخلاق في الحُجتين اللتين عرضهما – ألفريد جولس آير – على الرغم من رفضه للميتافيزيقا، والدين، وأحكام القيمة سواءً كانت قيمة أخلاقية أم جمالية، فالحجة الأولى، يمكن تلخيصها فى أن وجود الله هو ما يعلل وجود الأخلاق، فالإنسان

(107) حسين علي: **الميتافيزيقا والعلم**، المجلد العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م، ص27.

بحكم طبيعته يتصرف بطريقة أنانية، فإذا حدث وتصرف شخص ما على عكس هذه الطبيعة الأنانية لأجل خدمة الآخرين، فإن هذا التصرف مُضاد للطبيعة التى جُبلت على الأنانية، ومن ثم فلابد لهذا السلوك من قدرة معينة تفوق القدرة الطبيعية للإنسان، وهذه القدرة العليا يتم إكتسابها من خلال الله. والحجة الثانية تؤكد أن الله هو ما يعطى الأخلاق الصفة الموضوعية[108].

إن الرؤية الكانطية التى قدمها آير، ولم يأخذ بها، هى الرؤية التى تُبنى عليها الأخلاق بصفة خاصة، حيث أن الدين هو الركيزة الأساسية التى تُبنى عليها الأخلاق، فالدين هو الأصل، والأخلاق فرع، فلا يجوز الإعتماد على الفرع وتهميش الأصل، لذا يختلف الباحث هنا مع الرؤية التى قدمها هتشيسون فى نظريته الأخلاقية، كما يختلف الباحث أيضًا مع الرؤية التى قدمها بهاء درويش فى دراساته الأخلاقية، معتمدًا فى ذلك على المنهجية الإسلامية، إذ يقول: "فإذا كانت الأخلاق تستقل عن الدين كمبحثين معرفيين، إذ لا يمكننا القول أن المجتمعات غير المتدينة لا أخلاقيات لها. فلكل مجتمع أخلاق تميزه عن غيره. حتى العرب قبل الإسلام كانت لديهم أخلاقيات الشهامة والفروسية والإيثار. من هنا يمكن القول أننا لا يمكننا الاستعاضة عن الأخلاقيات بالدين. والذين يزعمون أنه من الضروري رد الأخلاق للدين نذكرهم بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، مما يعني أنه كانت هناك أخلاق، وأن سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – جاء "ليتممها".. مما يعني أن الأخلاقيات سابقة تاريخياً على الدين. وهذا يؤكد أيضًا أن الأخلاقيات سابقة منطقياً على الدين"[109]، وعلى هذه الجدلية التى قدمها بهاء درويش يجعل الباحث يتساءل هنا، إذا كانت الأخلاق سابقة على الدين، فما الدافع إذن لوجود الدين كمنهاج وعقيدة فى الحياة ؟وعليها فإن أى نظرية تحاول تأسيس الأخلاق بعيدًا عن الدين، أو تقول بأسبقية الأخلاق على الدين تاريخيًا هى حقًا نظرية جوفاء لا وجود لها، أو هى غير ذات موضوع.

من هنا يمكن القول أن نظرية هتشيسون الأخلاقية قد تحطمت فى الخريطة الفلسفية، فلو أخذ هتشيسون بالدين الذى جعلته الكنيسة الحارس والواعظ له، حيث عدته الكنيسة فى المقام الأول – رجل دين – فكيف لرجل الدين أن يؤسس لأخلاق بعيدة منطقيًا عن الدين ؟

(108) بهاء درويش: **ألفريد جولس آير**، مرجع سابق، ص 348.

(109) بهاء درويش: "**المفاهيم الغائبة لقيام أخلاق محلية – مصر أنموذجاً**". مجلة الفكر المعاصر العدد 14 ابريل– يونيو 2019، ص ص44: 45.

ثم أخيرًا، فيما يتعلق بمعالجة هتشيسون لفكرة السعادة، فإذا كان واجبًا على الفرد أن يحقق السعادة للمجموع، وفقًا لمذهب المنفعة العامة، فكيف نفسر وجود الأنانية فى الحياة الإنسانية؟ وكيف نفسر حُب الأب لأبنائه أكثر من أبناء إخوته؟

نتائج البحث

من خلال هذا الطرح الفلسفي لنظرية هتشيسون الأخلاقية، توصل الباحث إلى عدد من النتائج المهمة، والتى يمكن حصرها فيما يلي:

أولاً: يُعد هتشيسون أبو التنوير الأسكتلندى فى عصره، كما يمكن عده المؤسس لنظرية الحاسة الخلقية مع أستاذه شافتسبري، على الرغم من كونه قام بتطوير النظرية، إلا أن كتاباته الأخلاقية الوفيرة، وعمله داخل الكنيسة، جعلت لأفكاره الانتشار، حتى طغت أفكاره فى الحاسة الخلقية على أفكار أستاذه.

ثانيًا: من خلال البحث والتنقيب عن المعلومات والكتابات التى تناولت هتشيسون بوصفه فيلسوفًا عميقًا فى فكره، وجدنا تجاهل الكتابات العربية، والأجنبية أيضًا لفلسفته، على الرغم من كون فلسفته قد غيرت بعض الملامح السياسية فى عصره، كما تضمنت فلسفته أيضًا فكرًا أكسيولوجيًا كاملاً، ومع كل هذا، لم تنل فلسفته نصيبًا من البحث مثل الفلاسفة اللاحقين عليه، كـ "هيوم" أو "روسو" أو غيرهما.

ثالثًا: تمثل الحاسة الخلقية عند هتشيسون نظرية سيكولوجية وأخلاقية معًا، لكونها تعالج السلوك من خلال الإحساس أو العاطفة، أو "الضمير" بوصفه قوة غير ملموسة، ولكنه قادر أن يحكم السلوك الإنساني نحو الفضيلة أو الخير، كما ينهاه عن فعل الشر أو الرذيلة.

رابعًا: يمكن القول أن فكرة "الإحسان" أو "الأريحية" فكرة جديدة وعميقة فى فلسفة هتشيسون الأخلاقية، وإن كانت هذه الفكر شغلت حيزًا كبيرًا فى الفلسفة الرومانية القديمة عند "سينيكا"، إلا أن اقتران هذه الفكرة الأصيلة بنظرية هتشيسون فى الحاسة الخلقية، جعل لهذه النظرية معنًا ومضمونًا قيميًا.

خامسًا: من خلال النظر لمعالجة هتشيسون لفكرة السعادة، والتى طالب بتحقيق أعظم قدر منها لأكبر عدد من الناس، يمكن القول أن هتشيسون رائد مذهب المنفعة العامة فى شتى العصور، وهو يسبق أئمة النفعية أنفسهم، أمثال: "بنتام"، "مل" و"سيدجويك".

كشاف ببعض المصطلحات اللاتينية الواردة فى كتابات هتشيسون، وترجماتها باللغتين الإنجليزية والعربية.

اللغة العربية	اللغة الإنجليزية	اللغة اللاتينية
الخير	Good	Bonum, beneficentia
الحواس الداخلية	Internal Senses	Sensus Interni
المنطق	Logic	Logick
البؤس أو الشقاء	misery	Miseria
الميتافيزيقا	Metaphysics	Metaphysicks
السعادة	Happiness	Beatitudo
الفلسفة الأخلاقية	Moral Philosophy	Philosophiae Moralis
النظرية الأخلاقية	Ethics	Ethicks
الطبيعة	nature	naturalem
قوة	power	virtutem
الحواس	senses	Sensibus
الإرادة	Wills	voluntates
الآلام	Pains	dolores
المنفعة	Utility	Utilitates
الرغبة	desire	cupiditati sive
الفرح	Joy	Laetitiae subjiciuntur

beneficentiae	beneficence	الإحسان
honestatis studium	Love of virtue	حُب الفضيلة
moerores	sorrows	أحزان

مصادر ومراجع البحث

أولاً: مصادر هتشيسون.

1. Hutcheson, F. (2004). ***An Inquiry into The Original of Our Ideas of Beauty and Virtue****, in Two Treatises*, edited, Wolfgang Leidhold, liberty fund, inc. Indiana.
2. ــــــــــــــــــــ. (2004). ***An Essay on the Nature and Conduct of the Passions and Affections***, With Illustrations on the Moral Sense, edited by Aaron Garrett, Mark H. Waymack, Hume Studies, volume 30, Number 1.
3. ــــــــــــــــــــ. (2002). ***An Essay on the Nature and Conduct of the Passions and Affections with Illustrations on the Moral Sense,*** edited by, Aaron Garrett, liberty fund, inc. Indiana.
4. ــــــــــــــــــــ. (2006) ***Logic, Metaphysics, and the natural sociability of mankind***, Book I, II, edited by, James Moore and Michael Silverthorne, liberty fund, inc. U. S. A.
5. ــــــــــــــــــــ. (2007). ***Philosophiae Moralis Institutio Compendiaria with A Short Introduction to Moral Philosophy***, Book I, Edited and with an Introduction by Luigi Turco, liberty fund, inc. U. S. A.

ثانيًا: المراجع العربية.

6. بهاء درويش: **ألفريد جولس آير – من الوضعية المنطقية إلى التحليل الفلسفي**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2001.
7. ـــــــــــــــــ: "**المفاهيم الغائبة لقيام أخلاق محلية – مصر أنموذجاً**". مجلة الفكر المعاصر العدد 14 ابريل– يونيو 2019.

8. توفيق الطويل: **فلسفة الأخلاق – نشأتها وتطورها**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1985م.
9. حسين علي: العلم والقيم الأخلاقية – رؤية معاصرة، أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.
10. ـــــــــــــــ: الميتافيزيقا والعلم، المجلد العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.
11. محمد مدين: **نظرية القيمة عند ديفيد هيوم – بحث فى إعادة بناء الرسالة**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م.

ثالثًا: المراجع المترجمة إلى العربية.

12. برتراند رسل: **حكمة الغرب، الجزء الثاني، الفلسفة الحديثة والمعاصرة**، ترجمة: فؤاد زكريا، عدد يوليو 365، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009م.
13. ديفيد هيوم: **تحقيق فى الذهن البشري**، ترجمة د. محمد محجوب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008م.

رابعًا: المراجع الأجنبية.

14. Ainslie, D. C. (2001). ***Hume`s Reflections of the Identity and Simplicity of Mind***, Philosophy and Phenomenological Research, Vol.62, No.3.
15. Brooks, G.P., Aalto, S.K. (1981). **The Rise and Fall of Moral AL Gebra: Francis Hutcheson and The Mathematization of Psychology**, *Journal of The History of The Behavioral Sciences 17*.
16. Carey, D. (2005). ***Locke, Shaftesbury and Hutcheson***, Cambridge University Press, New York.
17. Clinton, B. M.C. (2014). ***The Humanism of Francis Hutcheson***, Humanism Ireland, No 148.
18. Darwish, B. (2009). ***Rethinking Utilitarianism*,** in teaching ethics, vol.10.
19. Gill, M. B (1996). ***A Fundamental Difference between Hutcheson and Hume***, Hume Studies, Volume xxii, Number 1.

20. Holland, A. T. (2005). ***Natural Belief and Hume`s Philosophy of Religion,*** degree of Doctor of Philosophy, Philosophy dept., University of Utah.
21. Iwasa, N. (2011). ***Hume's Alleged Success over Hutcheson,*** Synthesis Philosophica, 52.
22. Jensen, H. (1971). ***Motivation and The Moral Sense in Francis Hutcheson`s Ethical Theory***, Martinus Nijhoff, the Hague, Netherlands.
23. Kivy, P. (2003). ***The Seventh Sense – Francis Hutcheson and Eighteenth-Century British Aesthetics,*** Clarenndon Press, Oxford, Second Edition.
24. Mousourakis, G. (1997). ***Utility and Rights in Francis Hutcheson Theory*,** Indian Philosophical Quartley, Vol. xxiv, No.4.
25. Norton, D. F. (2000). **Hutcheson, Francis**, in. *Concise Routledge Encyclopedia of Philosophy*, Routledge London and New York, First Published.
26. Scott, W. R. (2011). **The Never be Forgotten Hutcheson**, *Econ Journal Watch*, volume 8, Number 1, January 2011.
27. Sheridan, P. (2007). ***The Metaphysical Morality of Francis Hutcheson,*** Springer Science + Business Media B.V.
28. Sprague, E. (1996). **Hutcheson, Francis**, in. *The Encyclopedia of Philosophy*, Edited by, Paul Edwards, volume three, Macmillan Reference, USA, New York.
29. Turco, L. (2003). **Moral Sense and The Foundation of Morals**, An Essay in, *The Scottish Enlightenment*, edited by, Alexander Broadie, Cambridge University Press, New York.
30. Westermark, E. (1932). ***Ethical Relativity,*** Kegan Paul, Trench, Trubner & Co, LTD, London.